الفصل الثاني

على حافة الإمبراطورية

«ليس لدي أدنى فكرة عن هوية الأشخاص الذين نقاتلهم»

- عضو في مجموعة المهمة الخاصة 11

في مكان ما على الحدود الفاصلة بين باكستان وأفغانستان، كان هدير المروحيات في حكم الموسيقى الخلفية لرقص رشيق متشابك للباليه الجوية الذي تؤديه الطائرات المروحية فوق رأسي. كان يوماً بارداً من أيام كانون الأول، وكانت طائرتان مروحيتان أمريكيتان من طراز هيوي تحومان حول ربوة تبعد مسافة 450 متراً إلى الشرق. اقتربت الطائرة مني كثيراً إلى الحد الذي تمكنت فيه من شم رائحة الغاز العادم المنبعث من محركاتها التوربينية ورؤية قناص يلبس خوذة ويقبض على بندقيته الآلية. كان رجع صدى الصوتِ القوي الثابتِ يتردد بين الجبال حين كانت إحدى الطائرات تستعد للهبوط وتتفحص المنطقة المحيطة وكأنها مترددة في الهبوط، في هذا المرتع الوخيم. في حين انقضَّت الطائرة الأخرى خلف التلال كصقر غاضب، باحثة عن مهاجمين محتملين.

ومن معقلي الصغير على قمة جرف شديد الانحدار، نظرت إلى الغور العريض المقابل لمدفعية بالية مضادة للطائرات موجهة نحو باكستان. ومنذ انتهاء مرحلة العمليات العسكرية الناشطة في أفغانستان، بدأ المتعهدون الأمنيون العاملون في الشركات الأمنية الخاصة بتمشيط هذه المنطقة، بالتعاون مع أفراد من الجيش الأمريكي ووكالة الاستخبارات المركزية بحثاً عن ابن لادن. وأنا أجلس على طرف الطريق المؤدي إلى قاعدة عسكرية أمريكية صغيرة غير مسماة، وغير محددة على أي خريطة رسمية، تعمل فيها وحدات تبدو كأنها وحدات قوات خاصة، إضافة إلى مرتزقة من الأفغان. وتوجه

الأسلحة المعبـأة بالذخيرة نحو حدود دولة حليفة [باكستان]، أما العربات والحافلات في تلـك القاعدة، فتركت محملة تحسبـاً للمغادرة على عجل. وعلى التـلال المحيطة أقيمت نقـاط مراقبة مشابهة من الهيسكوس- وهي صندوق رمـادي طوله خمسة أقدام (1.52 مـترًا)، مملوء بالحجارة ومحـوط بالأسلاك الشائكـة. وعلى ظهـر الهيسكوس وضعت أكياسـ من الرمال بطريقـة عشوائية، وكومة من الذخيرة، وتضفـي لفافة من الأسلاك المعدنيـة فضية اللـون التي تستخدم في نصـب الشراك، على ذلـك المشـهد مسحة من جنـون الارتياب. ومـن مسافة بعيدة، تبدو هذه القلاع التي أقيمت على عَجَل كأنها قلاعاً مـن عهد الصليبيين من العصور الوسطى، أما عن قـرب فتبدو تحصينات غير منتظمة للحماية من الهجمات.

وباستخـدام منظار مقرب في معاينة المنطقة، يمكنني مشاهدة التلال الممتدة والوديان السحيقـة، وأشجـار الصنوبر المتباعدة عن بعضها. ومن مسافـة سحيقة أسفل منا، كانت شاحنات الجنغا ذات الألوان الزاهية، المحملة فوق طاقتها، تقعقع وتئن من وعورة الطريق وهي تنقل البضائع من باكستان إلى أفغانستان. وإلى يساري باتجاه باكستان، أشار الأفغان المضيفون إلى جبل قالوا: إنَّ القذائف التي تطلق عليهم في العادة تنطلق منه. وتتمتع الشرطة القبلية الباكستانية -رسمياً- بسلطة حفظ الأمن في المناطق القبلية الجبلية داخل الحدود الباكستانية، في حين يتولى الأمريكيون مهمة حفظ الأمن في الجانب الأفغاني. وإنْ لم يكن جهـاز تحديد الموقع (جي بـي أس) الذي معي مخطئاً، فإن هذا الموقع الأمريكي والمسلحين الأفغان العاملين فيه، هو داخل الأراضي الباكستانية بعمق خمسة أميال.

صـاح الجندي الأفغـاني الذي يعمل في هـذه القاعدة الأماميـة وكان يقف إلى جانبي متبسمـاً «رفاقـك الأمريكيون!» مشيراً إلى الطائرة المروحية التـي وصلت لتوها. كان هذا الجندي يرتدي الزي العسكري الأمريكي ويضع نظارة شمسية زرقاء اللون، وهو واحد من بين أربعين من الأفغان الذين استخدمهم الجيش الأمريكي لحراسة هذه القاعدة الأمامية براتـب مرموق يبلـغ 150 دولاراً في الشهر. وهم يسكنون في قلعـة أثرية مشيدة من الطين علـى مقربـة من التل المجـاور، وكل ما يقتنونه من زينة وأثاث في هـذا المنزل المتواضع هو

تقـويم دعائي باكستاني، وصناديق الذخيرة وبعض الكراسي البلاستيكية الرخيصة، لكن هذا هو مسكنهم، وهم يفعلون كل ما بوسعهم لإكرامي والقيام بحسن ضيافتي.

يقـول الجيش الأمريكـي: إنَّ القواعـد الرئيسة في خوسـت، وغارديـز، وأورزغان، وأسدآذ ذبـاد هي الجبهة الأمامية في الحرب على الإرهاب، غير أن وكالة الاستخبارات المركزيـة الأمريكية والجيش الأمريكي يعملان معـاً في عدد من القواعد الأصغر حجماً قـرب الحدود الباكستانيـة كهذه القاعدة التي زرتها، وهي قاعدة يفترض أن تبقى دون اسـم، غـير أن الناظر في وجـوه هؤلاء الأفغان يشعـر بأن هذه السرية لـن تدومَ طويلاً علـى أي حال. ويتركز جـل اهتمام الإعلام في هذه المنطقة على بلـدة شكن ذات الوقع الروسـي على أذن من يجهـل الجغرافية، وهي بلدة تقع إلى الجنوب من هنا. ومن عهد قريب، شهدت القلعة المشيدة من الطين في هذه البلدة مرور أكبر تجمع للصحافيين في أفغانستـان، وتكـون الزيارات المنظمة لهذه البلدة في العـادة مصحوبة بعبارات مبتذلة وشعـارات دعائيـة سينمائيـة، وصفها ضابط الاتصـال الإعلامي في باغـران بصوت بهيـج بأنهـا «أشرّ مكان في العـالم»، ووصفها قائـد القاعدة العسكريـة أمام مجموعة مـن المراسلين وعلى وجهه ملامح الجد «أنها شيء مـن ماد ماكس»[1] وحتى الثلاث مئة جنـدي أمريكي المتمركّزين في شكن هـم الآخرون يكررون الحديث عن «قلعة أباتشي»[2] أو «آلامـو»[3] أمـام الصحافيـين المتلهفين إلى المعلومـات والإثارة. وربمـا أسرّ لك بعض الصحافيين بأن الجنود في قاعدة شكن تلقوا تعليمات خطية من قادتهم بعدم التحدث عـن العمليات التي تجـري وراء الحدود الأفغانيـة، أو عن حجم القذائـف المدفعية، أو

1- في إشارة إلى الفيلم الأسترالي ماد ماكس (ماكس المجنون) 1979، وهو من بطولة مل غيبسون الذي مثل دور ضابط الشرطة في منطقة نائية تنتشر فيها الجريمة، وهو يحاول حفظ الأمن على الطريق السريع في المناطق النائية من أسترالية، وتبع هذا الفيلم سلسلة من الأفلام عن هذا الشرطي الملقب ماد ماكس. منها ماد ماكس2: فارس الطريق السريع. 1981، وماد ماكس ما بعد العاصفة. 1985. (عن موسوعة إنكارتا بتصرف)

2- إشارة إلى فيلم الكاوبوي قلعة آباتشي (1948) من بطولة جون وين.

3- نسبة إلى قلعة آلاما في مدينة سانت أنتونيو بولاية تكساس، وهي القلعة التي شهدت أعمالاً وتضحيات بطولية في الحرب الأمريكية المكسيكية.

القنابل الذكية، أو العيارات النارية، التي تطلق باتجاه الحدود الباكستانية؛ وبذلك أحرز الجيش الأمريكي ببراعة فائقة هدفه في تنفيذ عملية سرية، تحت مسمع ومرأى الصحافيين الذين يزورون المنطقة، دون علمهم بهذه العملية.

وعلى الرغم من الإحصاءات الرسمية التي تقول: إن تسعة أعشار الخسائر في الأرواح في صفوف الجنود الأمريكيين تحدث في هذه المنطقة، إلا أن القلعة المبنية من الطين في مدينة شكن ربما تكون واحدةً مِن آمنِ النقاط على الحدود مع باكستان. إن أكثر الهجمات التي نجم عنها قتل أو جرح جنود أمريكيين في هذه المنطقة كانت نتيجة كمائن تنصب خارج نطاق هذه القاعدة، ويصر الأمريكيون على أنَّهم يستنزفون قوة طالبان والقاعدة، ولكن العكس ربما يكون هو الصحيح. وما يحدث هو أن لغماً أرضياً بعيداً ينفجر ويصاب على إثره جندي أمريكي بجروح، ثم تأتي الطائرة المروحية لإنقاذه، ونظراً لسهولة إسقاط المروحيات، تصبح الطائرة هدفاً سهلاً لقوات المقاومة؛ وهذا الوضع يجبر الأمريكيين على حماية خطوط يصعب تأمينها، وهذا التحرش العرضي القصير الذي يهدف إلى استدراج مزيد من قوات الحماية إلى كمين كبير هو مثال تقليدي على التكتيكات التي استخدمها المجاهدون الأفغان في الثمانينيّات. وعلى الرغم من أن هذه التكتيكات وثقت على نطاق واسع، وتدرس في كليات الحرب، فإنه يبدو أن إستراتيجية المجاهدين قد نسيها المجندون الجدد الذين يقاتلون على التخوم.

تطل القاعدة الأمامية التي وصلتُ إليها على سلسلة جبلية مشهورة بين مدينة ميرام شاه الباكستانية، وبين جارتها الأفغانية خوست. وكانت ميرام شاه قاعدة إمدادات ومحطة استراحة ونقاهة للثوار المجاهدين الذين قاتلوا الاحتلال السوفييتي في الثمانينيات، ولا تزال مركزاً رئيساً للتهريب. ويعتقد الجيش الأمريكي، والحكومة الباكستانية، وغيرهم أن أسامة بن لادن مستخْفٍ في المناطق الجبلية لقبائل البشتون في مكان ما بين خوست ومدينة بيشاور الواقعة في شمال باكستان. وقد عمل ابنُ لادن هنا وقاتلَ إلى جانب المجاهدين في هذه المنطقة في الثمانينيات، ثم عاد إلى هذه المنطقة بعد

أن خرج من السودان أواخرَ التسعينيات، وليس من المستغرب أن تستمرَّ الهجمات المنظمةُ على الأمريكيين والحكومة الأفغانية في أعلى معدلاتها في هذه المنطقة.

عدت إلى أفغانستان بعد سنتين كاملتين من بَدْءِ الحرب أواخرَ عام 2001. وفي أثناء هذه الزيارة، بدأت القوات الأمريكية بشن حملة أطلق عليها عملية التيهور، شارك فيها زهاء ألفي جندي ومئات من غارات الطائرات المروحية في محاولة عقيمة للقضاء على فلول طالبان وشبكة القاعدة في المناطق الحدودية حول خوست. فعمليات المقاومة الهامشية التقليدية لم تتوقف في هذه المنطقة منذ انتهاء المعارك الرئيسة، مع وجود جيوب لا يستهان بها تدعم طالبان، وجماعات التهريب، وزعماء الميليشيات المحلية، وهي عوامل تجعل من الاستقرار في هذه المنطقة من أفغانستان احتمالاً بعيدَ المنال. ومع تحول التركيز بعد هجمات 11 أيلول/ سبتمبر إلى ابن لادن، فإن الأحداث الراهنة تغفل ذاكرة تاريخ الحروب المتواصلة في أفغانستان. لقد كانت هذه المنطقة هي الحافة التي وصلت إليها إمبراطورية الاسكندر المقدوني، والإمبراطورية البريطانية، ومن عهد قريب الروس. وكالموجة العالية المندفعة التي تختفي وتغوص في الرمال عند وصولها الشطَّ، واجهت الأفكار العظيمة والحملات العسكرية ثبات ومقاومة الشعب، والمكان، وفكرة أفغانستان. واليوم، يجد الأمريكيون أنفسَهم في الواجهة المقابلة لخط دوراند الحدودي، حيث بدؤوا من هناك بإنفاق الأموال وممارسة التأثير لقتال الروس قبل عقدين من الزمان.

وفي أثناء الحرب الروسية على أفغانستان، أوصى جهاز الاستخبارات الباكستاني بتقديم الدعم للطرف الأفغاني بالمال، والسلاح، والذخيرة، والتدريب، والنصائح العملياتية، وتوفير الملاذات الآمنة، مع الاحتفاظ في الوقت نفسه بسياسة ظاهرية بعدم التدخل، والقدرة على إنكار وقوع التدخل. وكان نموذج «الحرب بالإنابة» هو النموذجَ المفضلَ من الحرب العدوانية؛ لأن أي هجوم مباشر من قبل باكستان أو الأمريكيين، أو غيرهم، كان من المتوقع أن يلقى استنكاراً عالمياً، وربما انتقاماً من السوفييت. غير

أن عـزوَ المسؤوليـةِ عن العنف إلى الجماعات الجهادية المحليـة من شأنه أن يعززَ الفكرةَ القائلةَ بوجود حركة مقاومة ذات جذور شعبية تقاتل لدفع الظلم والعدوان.

قامـت باكستـان بإنشـاء جيش غير نظامي تحـت مسميـات دينية، وقدمـت الدعم لجماعـات سياسية في بيشـاور (...)، ولتحقيق ذلك، أنشـأت الاستخبارات الباكستانية وكالـة أفغانية داخليـة مختصة بإنشاء معسكـرات للتدريب، ونقـل الأسلحة والإمدادات مـن باكستان إلى الحدود، وضمان إيواء وإطعـام آلاف المتطوعين، وكسوتهم، وتدريبهم، وتجهيزهم للجهاد دون أن يعكرَ ذلك صفوَ العلاقات الدولية.

بعث العالم الإسلامي بشبابه الغاضب المتحمس المؤمن بالأفكار المثالية، الذين سرعان ما تشربوا الرغبة الدينية .. التي تجعل تحقيق الهدف الأسمى للإنسان عبر الشهادة والتضحية بالنفس. ولا يقتصـر الجانب الأهم في عقيدة الجهاد على فكرة المـوت بوصفه أعلى مراتب التضحية؛ بل يشمل فكرة أن الأمراء العظام يمكن أن يقاتلوا إلى جانب عامة الناس و وضعاء الفلاحـين، وإذا لم يتمكـن شخص مـا من المشاركـة في القتال، فإن دعـم وتجهيز المقاتلين الورعين هو في حكم المشاركة الفعلية ويكفي للوفاء بمتطلبات الجهاد الشرعية (...).

(...) اعتمـدت إستراتيجية جهـاز الاستخبارات الباكستانيـة في مواجهة السوفييت على الافتراض بأن خطة السوفييت تقوم على إنشاء سلسلة رئيسة من القواعد العسكرية في المواقـع الإستراتيجيـة والطرق الموصلـة بينها. وكما كان متوقعاً، فقـد بقي السوفييت خارج المناطق الريفية جاعلين قاعدتهم المركزية في بغرام إلى الشمال من كابول. وقاموا كذلك بإنشاء نقاط محصنة، واجتهدوا في إرسال دوريات المراقبة لقطع خطوط الإمداد ومنـع المقاتلين من الدخول عبر الحدود الباكستانية. ونجح المجاهدون في محاصرة هذه النقـاط العسكرية والاستيلاء عليها من وقت لآخر بعد رصدها وتقدير قوة الجنود فيها، والذخائـر والإمدادات الموجـودة فيها، والوقت الذي يتطلبه وصـول الدعم الجوي إليها. وكان المجاهـدون حريصـين على عـدم التورط في خوض معارك تقليديـة يمكن أن تلحق بهم خسائر فادحة، مكتفين بأسلوب الكر والفر والهجمات المباغتة، وكسب الجولة الأولى

ثـم الاختفاء في أماكن آمنـة. واستخدموا بنجاح النموذج المؤسـس على دروس الجنرال غياب في الهند الصينية- وهي التكتيكات نفسها التي هزمت الجيش الأمريكي في فيتنام عـن طريق جره إلى حرب عصابات دموية. فالروس لم يهزموا بمعركة واحدة، بل جاءت هزيمتهم نتيجة حرب استنزاف طويلة الأمد، باهظة التكاليف، تفتقر إلى الدعم الشعبي داخل الاتحاد السوفييتي، فاضطرتهم إلى الانسحاب والتراجع خلف الحدود.

استخدم المجاهدون هذه التكتيكات في حربهم على الروس كما يستخدمونها اليوم في حربهـم مع الأمريكيـين. والتطور الحديث الذي طرأ على هـذه الحرب هو هواتف الثريا التـي تعمل بوساطة الأقمار الصناعيـة، وتفجير القنابل عن بعـد (وتستخدم فيها عادة جهاز لاسلكي أو جهاز تشغيل سيارة من بعد). وتعود نشأة نظام المقاومة القائم اليوم إلى الدعـم المالي الذي قدم أيام الجهاد ضد السوفييت، غـير أنَّ قنوات التمويل، والتدريب، واللاعبين، والتكتيكات موجهة الآن نحو طرد ومضايقة الجيش الأمريكي، وأوجه التشابه بـين الحالـين لافتة للنظر: فاليـوم، تقوم السياسـة الأمريكية على دعـم حكومة صديقة وتعمـل على تدريب جيش محلـي (كما كان يفعل الروس)، وتجنـب المواجهة الحادة على الأرض (كما كان يفعل الروس)، مؤثرة الطيران من القواعد العسكرية الرئيسة والبقاء داخـل معسكرات محصنة (كما كان يفعل الروس)، غـير أنَّ الفارق الجوهري في الوقت الحاضر هو الأعداد الكبيرة للمنظمات غير الحكومية التي تقوم بتنفيذ الأجندة الغربية، وإهمـال النظام التعليمـي، واستخدام المتعاقدين الأمنيين مـن القطاع الخاص، وانعدام التدفق السـري الهائل للأموال الأجنبية لدعم إخراج «المحتـل» الأجنبي من أفغانستان، والغيـاب المتعمد لأسماء الجماعات التي تهاجم الغربيـين وأتباعهم من المرتزقة. وينظر الأمريكيـون إلى وجودهم في أفغانستان بوصفه نصـراً على الإرهاب، في حين يرى جنود المقاومـة في مشاغلـة الأمريكيـين واستنزاف مواردهـم نصراً لهم. ويمكـن لأي أفغاني أن يقـول لك، كـم استغرقنا من الوقت لهزيمـة البريطانيين؟ وكـم استغرقنا من الوقت لإخراج الروس وهم يجرون أذيال الهزيمة؟ وبالمثل، فإن الحرب على الاحتلال الأمريكي لأفغانستان يمكن أن تصبح ثأراً يمتد عبر الأجيال.

استكملت الدعاية الإعلامية للجهاد عناصرها الأساسية في أثناء الحرب على الاتحاد السوفييتي (...). وفي اعتقاد الأفغان، كانت تلك الحرب مثالاً آخر يدعم مقولة أن أفغانستان هي دوماً مقبرة لكل معتدٍ أجنبي، وإن قدّم معتدون أجانب المال والسلاح لهزيمة معتد أجنبي آخر. ويتذكر أكثر الرجال الأفغان من بين سن الثلاثين إلى الستين قصصاً درامية عن مصارع الروس، وإسقاط مروحياتهم، وحرق قوافل جنودهم، والهجمات المضادة العنيفة التي ألحقوها بهم. ويتحدث كل أفغاني عن الجهاد بفخر واعتزاز، وقدمت لهم تجربة الجهاد نبعاً غزيراً من المشاعر الوطنية، ولكنهم يتناسَوْن عن قصد قيام المقاتلين الربانيين في منتصف التسعينيات وبعد خروج الروس، بتدمير كابول، وارتكاب المذابح. وما زال كثير من هذه الجماعات الأصولية يقدم الدعم للجهاد ضد الأمريكيين اليوم في أفغانستان. ولم ينس أكثر السكان المحليين إسهامات ابن لادن وجهاده في تلك الحرب.

ولا تزال المنطقة المسمّاة «منقار الببغاء»، وهي منطقة باكستانية تمتد داخل أفغانستان أسفل تورا بورا وفوق خوست، تمثل نقطة الضعف في العمليات الأمريكية. وكانت خوست، ولا تزال، بقلاعها الجبلية في زهوارخيلي، مركزاً تقليدياً للمقاومة؛ وما زالت مدينة ميرام شاه التي تقع قبالتها، ملاذاً آمناً للقوات المنسحبة بعد تنفيذ الهجمات. وفي ثمانينيات القرن الماضي، كانت مدينة ميرام شاه نقطةَ العبور لعشرين في المئة من احتياجات المجاهدين للسلاح. وهي اليوم تمثل أسرع طريق إلى كابول وأسهل مكان لشن هجوم على الأمريكيين والعودة بأمان عبر الحدود. وقد تعرض عدد من المراكز الحدودية لهجمات مكثفة جنوب خوست مراراً وتكراراً. وتعد المدينتان الباكستانيتان: وانا وأنغور آدا أهمَّ نقطتين لانطلاق الهجمات التي تستهدف القاعدة الأمريكية في شكن، إلى الجنوب من مقاطعة بكتيكا.

يعد السفر من داخل أفغانستان إلى باكستان فيما يخص الرعايا الغربيين أمراً سهلاً وميسوراً؛ أما السفر إلى الحدود الأفغانية من داخل باكستان فإنه يقارب حدود المستحيل.

ويتـولى فرض اللافتة المشهـورة في المناطـق القبلية التي تقـول: «يُمنع دخـول الأجانب» جنـود باكستانيون، طِوالُ القامة، نحالُ الجسم، يلبسون سـتراً صوفية بنية اللون وأحذية رخيصـة. وتعد هذه المنطقـة الحدودية بين باكستان وأفغانستـان في نظر المجتمع الدولي مناطـقَ قبلية. غير أن رسامي الخرائط تعمـدوا التضليل. فالمناطق القبلية لا تخضع كلها لفكـرة «باكستان» بل ترى نفسها مركزاً لأمة مستقلة تدعى باشتونستان، وهي كَيان شطر إلى نصفين في عهد الاستعمار الإنجليزي بالخط الحدودي المسمى خط دوراند.

يمـر خـط دوراند فوق قمم سلسلة مـن الجبال، وهو خط وهمي متعـرج وضع في الأصل للفصـل بين الهنـد وأفغانستان. وقام ضابط بريطاني اسمه السـير مورتمير دوراند برسم الخـط الحدودي الذي يبلغ طوله 1519 ميـلاً ليفصل بين الهند وأفغانستان تنفيذاً للاتفاق الـذي أبـرم مع أمير عبد الرحمـن خان في 12 تشرين الثاني/ نوفمـبر من عام 1893. وفي ذلـك الوقت، عارض البشتون الذين يقطنون المنطقة تنفيذ هذا التقسيم، ومنذ ذلك الوقت كان يجري، قدرَ الإمكان، تجاهلُ هذا الخط الحدودي غير المحمي، وغير المحدد بوضوح.

كانت الحكومـة الباكستانية، ولا تزال، تجد صعوبة في كسب ولاء المناطق القبلية لها. ويعـترف قادة باكستـان منذ تأسيس الدولـة أنهم يواجهون وضعاً قابـلاً للتفجر في تلك المنطقة. ومع أن البشتون يشكلون ما نسبته 12% من سكان باكستان، إلا أنهم يسيطرون على 40% من أراضيها. ولو قدر لقبائل البشتون في الطرف الباكستاني الاتحاد مع أبناء جلدتهم في أفغانستان (الذين يقدر تعدادهم بنصف سكان أفغانستان) في كيان مستقل، لتحولت باكستـان إلى دولة صغيرة، أكثر سكانها من البنجاب، تكون هدفاً سهلاً لعدوان هندي. من أجل ذلك تهتم باكستان بالشأن الأفغاني وتأثيرها فيه أيَّما اهتمام.

قـدم الجهـاد ضد الروس فرصة مثاليـة لتعزيز المثل الدينية العالميـة على حساب التطلعـات البشتونيـة القبليـة. واليـوم تعمل باكستـان بحذر في هذه المنطقـة عن طريق استخـدام جنـود يجري تجنيدهم مـن المناطق القبليـة، ولا تتدخل بالشـؤون المحلية إلا بموافقة زعماء القبائل.

جهـزت نفسـي للانطلاق من خوست في رحلـة تستغرق يومـاً إلى المنطقة الحدودية، وذلـك على الرغم من مناشدة الحكام الإداريين لي، في كل من غارديز وخوست، بتجنب الذهـاب إلى هنـاك، وكان يرافقنـي دليـل محلي مـن أقارب أحـد الزعمـاء الأفغان في المنطقـة. ذهبت في هذه الرحلة؛ كي أشاهـد بنفسي كيف تسير عملية مطاردة ابن لادن، ولكـي ألاحـق المتعاقدين الأمنيين الأمريكيـين المتملصين الذين يقـال: إنهم يشاركون في هـذه العملية، غير أن هذه الرحلة «المحفوفة بالمخاطر» كانت مخيبة للآمال بعض الشيء حـين لم أقابل بالريبة والشـك؛ بل بالكرم وحسن الضيافة. وحـين وصلنا إلى آخر نقطة تفتيش أفغانية، لم يطلب حرس الحدود منـا إبراز جوازات سفرنا، ولم يفتشوا سيارتنا، ولكنهـم أصـروا على أن ننزل ونشرب معهم الشاي. لمـاذا لم يشكوا فينا؟ كانت إجابتهم مفاجئـةً لي: «لـو أراد أحد أن يتسلل إلى هنا، فإن بإمكانـه أن يستخدم العدد الكبير من نقاط العبور غير المحروسة». ثم اكتشفت في تلك اللحظة أن توهم وجود حدود تفصل بين أفغانستان وباكستان، يعادل توهم الأمريكيين بالسيطرة عليها.

لا توجـد أي علامـة أو إشـارة تميز أفغانستان عـن باكستان على الحـدود الحقيقية التـي تفصل بين البلدين، ولا توجد حدود يمكن تمييزها بالمعنى الحرفي للكلمة. وبحسب معطيـات جهاز تحديـد الموقع عن طريق الأقمـار الصناعية الذي كان معـي، فإن المكان المفترض فيه أن يكـون حداً بين الدولتـين، لم أرَ فيه سوى امتـداد منفسح مغطى بتلال ذات أشجـار خفيضة. ويوجد في المكان بعض المحـال التي تبيع الشاي، وبعض الصناديق الخشبية الصغيرة التي يمكن عدها متاجر صغيرة لبيع الحاجيات الضرورية، وتجمعات مـن الأفغان المتربعين في جلستهم المعتادة على الأرض يتبادلون أطراف الحديث. ويقف سائقو سيارات الأجرة في انتظار الزبائن، وينتظر الأصدقاء وصول أصدقائهم. ويمضي الأقارب وقتهم في الحديث والضحك.

وإلى الجهـة الغربيـة من الـوادي، رأيت مجموعـة صغيرة مـن الباكستانيين يلبسون القميصـ والسترة والسراويل، وخلفهم مجموعة متنوعة من الباصات الصغيرة البيضاء والسيـارات. وقيل لي: إنه لا يسمـح للناس بالدخول إلى باكستـان بسياراتهم؛ بل عليهم

أن يستأجروا سيارة تكسي باكستانية مرخصة. وتوقفت الباصات من الشمال والجنوب خلف سحب من الغبار الأبيض؛ ونزلت الأسر لتسير تجاهنا دون أن يتعرض لهم الجنود الباكستانيون بسؤال أو متابعة. أثار عدم اهتمامهم بالناس الذين يعبرون الحدود من إلى أفغانستان فضولي، فمشيت نحو ثلة من الجنود الباكستانيين؛ كي أسألهم عن السبب.

افترضت أن الجندي الذي يمسك العصا المخططة هو الشخص المسؤول عنهم، وكنت محقاً في ظني. سألته إن كان هناك عناصرُ من طالبان أو من الأجانب يعبرون الحدود لمهاجمة الأمريكيين في أفغانستان. فرد بنبرة المتيقن «هذا غير صحيح، الأفغان يكذبون». وكان حولي قرابة عشرين أفغانياً ينتظرون وصول سيارات الأجرة أو ربما يراقبون التدفق المستمر للناس ذهاباً وعودة. ويقبع على رأس الرابية المشرفة على الوادي في الطرف الباكستاني حصن يعلوه هوائي جهاز اتصال لاسلكي. رآني الباكستانيون وأنا أصور بكاميرا الفيديو فقالوا لي: إن التصوير ممنوع في المنطقة، فرجعت إلى الوراء بضعة أمتار عبر أخدود منخفض إلى منطقة حسبتها تقع في أفغانستان وتابعت التصوير.

صورت الحافلة تلوَ الحافلة وهي تفرغ حمولتها من الركاب ومجموعات الرجال وهم يدخلون إلى باكستان دون سؤال أو استفسار. وبدا أنَّه لا أحدَ من حرس الحدود الباكستانيين يكلف نفسه مشقةَ السؤال عن هُوية شخصية، أو وثيقة سفر. وعدت أسائل نفسي عن مدى صدق الجندي الباكستاني ذي العصا المخططة في ادعائه بعدم وجود مقاتلين يعبرون الحدود الباكستانية لمهاجمة الأمريكيين في الجانب الأفغاني. وفيما بعد، وحين تناولت الشاي مع مجموعة من الأفغان أسفل تلك التلال، قالوا لي: إن العرب والباكستانيين ينقلون الأسلحة ليلاً على ظهور الحمير عبر التلال القريبة من هنا. ويبدو أن الجنود الباكستانيين موجودون هنا بصفة رمزية وأن سبب وجودهم هو لرفع مستوى مرتباتهم المتدنية. وينتمي ولاؤهم الأسمى إلى زعماء القبائل في المدن داخل الحدود، وليس إلى حكومة مشرف المركزية. وينبع قرار السماح بحركة الناس عبر الحدود من سلطة أعلى من سلطتهم كثيراً.

عـدت في اليوم اللاحق إلى خوست، وأوقفت شابـاً أفغانياً يحمل في يده هاتفاً نقالاً من نوع ثريا، وقلت له: إنني أرغب بلقاء الأمريكيين في هذه المنطقة، علماً بأنني حين سألت هذا الشخص قبل عدة أيام عن زيارة المنطقة الحدودية، نصحني بعدم الذهاب بسبب الأخطار المحيطـة بالمنطقة. واليوم ها هو ينصحني بالذهاب لرؤيـة أصدقائي الأمريكيين. والفرق هـو الحافـز المالي. وهذا كل ما يمكـن قوله عن سرية الاستحكامـات التي يدعمها الجيش الأمريكي في المنطقة؛ لأنني اكتشفت للتوِّ سرَّ تحديد مواقعها، وهو أن تسأل أي شخص من السـكان المحليين يجيد اللغة الإنجليزيـة ويحمل بيده هاتفاً نقالاً يعمـل عن طريق الأقمار الصناعية تبلغ قيمته 800 دولار أمريكي. وفي رحلة قصيرة بسيارة أجرة، وصلت إلى نقطة الاستحكام الجرداء فوق هضبة مطلة على وادٍ يؤدي إلى ميرام شاه باتجاه خوست.

وعلى الطريق المـؤدي إلى القاعدة على قمة الهضبة، كانت هناك عربتان مصفحتان مـن طـراز همفي، وحافلة نقل صغيرة ذات لون بني فاتح تعلوهـا لوحة برتقالية، وسيارة مـن نوع لاند روفر مموهـة باللونين البنـي والأخضر، ويتبعها جميعـاً قافلة من حافلات نقـل صغيرة من نوع تويوتا مملوءة بالجنود الأفغان المسلحين الذين يشيرون مستعرضين أسلحتهـم الكثيفة وقفازاتهم الجديدة ونظاراتهم الشمسية. وبينما أنا واقف أراقب هذه القافلـة المكونة مـن سبع حافلات وهي متجهة إلى نحو مدرج هبـوط الطائرات المروحية أعلى الهضبة المجاورة، كنت أفكر بوسيلة أبدأ بها الاتصال. قفزت أسفل الدرج المصنوع مـن أكياس الرمل كي أتحدث إلى القائد الملتحي شاه آدم. وبلغة بشتونية مكسرة، أشرت بيـدي إلى الطائرات المروحية التي كانت تحلق في سماء المنطقة وقلت «أصدقاء». أركبني آدم في حافلة تويوتا كانت تابعة لحركة طالبان في السابق، وسرت برفقة الأفغان في رحلة ملتويـة من القاعدة الموجـودة على قمة الهضبة إلى مدرج هبوط الطائرات المروحية على قمة الهضبة المجاورة. وبين هذين التلّين شاهدت مزيداً من الجنود الأفغان الذين يعملون لحسـاب الأمريكيين يقومون بملء أكياس الرمال لبناء قاعدة استحكام أخرى أقرب إلى باكستان. وكما هو متوقع، أقيمت هذه القواعد في مواجهة باكستان، وبدت بوضوح الحقيقة المؤلمة أن العدو -وكما ذكر لي أحمد شاه مسعود مراراً وتكراراً- هو باكستان.

لما وصلنا إلى مدرج الهبوط، غادرت طائرتا هيوز تاركتين مجموعة من كبار الضباط يلبس كلٌّ منهم سترة واقية من الرصاص ويحمل على جنبه مسدساً. وتبدو قصة شعرهم الفضي حديثة العهد، وخوذاتهم اللامعة، وبزتهم العسكرية الأنيقة على النقيض من الحال الرثة لحراسهم الشخصيين من القوات الخاصة. ركب الضباط في عربات القافلة التي استدارت وتوجهت في طريقها إلى القاعدة الموجودة على قمة الهضبة.

ويبدو أن الأشخاص الذين بَقُوا لحراسة مدرج الهبوط هم من وحدة المهمات الحربية الخاصة – وهي واحدة من بين مجموعة من المجموعات النخبوية المكونة من أفراد من القوات الخاصة، وقوات الدلتا، وقوات سيل، والقوات شبه العسكرية التابعة لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، بالإضافة إلى المتعاقدين الأمنيين الموكول إليهم مهمة تعقب الأهداف ذات القيمة العالية. ويبدو أن هذه المجموعة مكونة من جنود تابعين لمجموعة القوات الخاصة العشرين، وهي وحدة من قوات الاحتياط أرسلت من ولاية آلاباما، وفيها جندي شاب من سلاح الجو يتولى مهمة تنسيق الدعم الجوي، وشخص أمريكي آخر يلبس ثياباً مدنية –بنطالاً حنطيَّ اللون، وسترةَ مصورين، وحذاء لتسلق الجبال، وكان يلبس نظارة شمسية من نوع أوكالي، ويقبض بيديه على بندقية إي كي-47 (كلاشنكوف) وهي سلاح غريب لشخص أمريكي، حتى في هذه المنطقة المشجرة النائية. وفي أثناء حديثي معه، أكد هذا المتعاقد شكوكي –وهي أنني رأيت للتو وحدة المهمات الخاصة-11 لكنه في هذه اللحظة استدار ومشى إلى الجهة الأخرى حين اقتربت من المجموعة.

تزعم الحكومة الأمريكية أن هذه المجموعة التي أنظر إليها الآن غير موجودة، وهي لا تكتفي بنفي أن هناك عمليات تجري داخل الحدود الباكستانية وحسب، بل إن وحدة المهمة الخاصة 11 قد حلت ولم يعد لها وجود، وكذلك حال وحدة المهمة الخاصة 5، ووحدة المهمة الخاصة 20. وفي شهر يوليو من عام 2003، صدر عن القيادة المركزية الأمريكية بيان قالت فيه: إنها حلَّت وحدة المهمة الخاصة 11، واصفة إياها أنها «مجموعة مكونة

مـن نخبة من قوات الدلتا، وقـوات سيل لتعقب قيادات طالبـان والقاعدة في أفغانستان ومـا حولهـا» وشُكلت وحـدة المهمة الخاصـة 20، التي نقلـت إلى العـراق لتعقب صدام حسين وكبار قيادات حزب البعث والقبض عليهم. وفي تشريسن الثاني/نوفمبر من عام 2003، قـام الجنرال جـون أبي زيد بحل وحدة المهمة الخاصة 5، ووحدة المهمة الخاصة 20، اللتـين تعملان في أفغانستان والعراق على الترتيـب، وشُكِّل بدلاً منهما وحدة المهمة الخاصـة 121. وهـذه الوحدة بحسب مـا وصفها الجيش الأمريكـي بأنها وحدة جديدة عالميـة مصممة للرد بطريقة أسـرع والتعامل مع الأهداف ذات القيمـة العالية تأسيساً علـى مـا يصلها من معلومات، وأنهـا ليست مقيدة للعمل ضمن الحـدود التي تعمل فيها القـوات التقليديـة للجيش الأمريكي، وهذه المجموعة وما تقـوم بها من عمليات مصنفة ضمـن أعلى مستويـات السرية والاضطـرار في البنتاغـون، ويتولى قيادة هـذه الوحدة ضابـط من سلاح الجو برتبة عميـد، وتبقى جميع العمليات والمعلومـات المتصلة بها في نطـاق السرية، ويرفضـ البنتاغون مناقشة أي نشاطات لها ارتباط بهذه المجموعة – ولا سيمـا قواعد الاشتباك، وحاجة هذه الوحـدة إلى الحصول على تصريح من الحكومات الأجنبية للسماح لها بالعمل في أراضيها.

تتألـف هـذه الوحدات الخاصة «في المقام الأول»، بحسب مـا جاء في الوصف الرسمي لهـا، من مجندين من قوات الدلتا وقوات سيل، تدعمهـا كتيبة العمليات الجوية الخاصة 160، ومطلـوب منها تعقب وقتل العناصر المهمة من طالبان والقاعدة «في أفغانستان وما حولها». واستخدمت عبارة «في المقام الأول» قناعاً يخفي تحته من يسميهم الجيش عناصر الوكالات الحكومية الأخرى في وحدة المهمة الخاصة، وتفيد عبارة «حول» أفغانستان أنهم يعملون عبر الحدود بعد صدور موافقة رسمية بموجب قواعد «المطاردة الحثيثة» أو «تحت إطـلاق النار». وحين سئل القـادة العسكريون في المؤتمرات الصحفية عمن يتعقب أسامة بـن لادن وقائد طالبان الملا محمد عمر، كانـت إجابتهم: أنَّ ثمة أشخاص آخرون يتولون هذه المهمة، وأنَّ والحقيقة تقبع في أعماق الجهاز الأمني الأمريكي.

بعـد أن أقلعـت الطائـرات المروحيـة، وتوجهت القافلـة بكبار الضبـاط إلى القاعدة العسكريـة لحضـور اجتماعهم، مكثت أنا للتحـدث إلى «الأشخاص الآخريـن» أنفسهم. والغريـب في الأمر أن الجيش الأميركي يقول: إنه ليس ناشطـاً في البحث عن أسامة بن لادن، مـع أننـي أقف وأمامي أفراد الجيش الذين يبحثون عـن ابن لادن. إن السرية التي تحيط بهذه الوحدة العسكرية وخضوعها المباشر لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية يتطلـب من الجيش أن ينكر وينفي أي نشاط تقـوم به. وعليه فإن الأشخاص الذين أنظر إليهم هم غير موجودين من الناحية الرسمية.

توجهـت إليهم، وحاولت بكل جهدي أن أتصرف وكأننـي غير مكترث وأنا أتحدث إلى الجنـود الأمريكيـين غير الموجودين مـن الناحية الحكميـة الذين يتولَّـوْن حراسة مهبط الطائرات. استمع القائد الملتحي ذو البشرة السمراء من فريق القوات الخاصة إليَّ بتمعن وأنـا أقدم له موجزاً عن سيرتي وطبيعة عملي، وتفحصنـي بعينيه من رأسي إلى أخمص قدمي، وقال، «نعم، سنتحدث إليك ...لكن عليك أن تنتظر حتى يغادر القادة الكبار أبناء الفاعلـة وسـوف نأتي إليك ونتحدث كما تشاء». وفهمت من كلامـه أنه يريد مني أن أبقى بعيـداً حتـى يعود وفد كبار القادة مـن حيث أتَوْا؛ لذلك رجعت لأجلسَ إلى جانب التلّ مع اثنين من أعضاء الفريق حتى تنتهيَ زيارة القادة الكبار لهذه القاعدة النائية.

ولمـا جلسنا، قال أحدهما وهو جندي برتبة رقيب من القوات الخاصة، بنبرة متهكمة: «مرحباً بك في الحرب التي نسيتْها أمريكا»، كان رجلاً بديناً، ويضع سماعة كبيرة أحادية في أذنـه، ويلبـس زيّاً عسكرياً حنطيَّ اللون. وعلى خلاف بقية أعضاء الفريق لم يكن هذا الجنـدي يطلق لحيتـه، وكان متلهفاً للتحدث فـوراً، كان في العراق قبـل تسعة أشهر، ثم أرسـل مباشـرة إلى أفغانستان في مهمة مدتها ستة أشهر، ثم صـاح متذمراً: «تباً لنظام إجـازة اليومين عن كل شهر!». وهو من قـوات الاحتياط التابعة لمجموعة القوات الخاصة العشريـن وينحدر مـن ولاية آلاباما. ويبـدو أن الطبيعة لم تتغير عليه كثـيراً: حيث قال: «تذكرني المناطق الريفية هنا بمنطقة جنوب ولاية يوتاه».

مـا عرفـت منه فـوراً أن المناطـق الحدوديـة تشهد عودة قويـة للعـدو؛ إذ يتعرض الأمريكيـون والأفغان للهجمـات والمصائد على نحو منتظم. وتخلـت الولايات المتحدة قبـل مدة عن واحدة من نقاط الاستحـكام الحدودية من بين أربع بالقرب من لوهارا. وتتعرض البقيـة لهجمـات متزايدة وتتبدل السيطـرة عليها من وقـت لآخر بين أيدي الأفغـان، وطالبان، والقاعـدة، والباكستانيين، والأمريكيين. تأتـي الهجمات من جهة الطرف الباكستاني من الحدود وتحدث في أثناء الليل، ويبدأ الهجوم عادة بالصواريخ، ثـم بالقذائف المدفعية، ثم تتبع بهجوم ثلاثي: المجموعة الأولى تنتظر التقدم، والثانية تطلـق النيران، والثالثة تتقدم لإعادة الكـرّة. وفي العادة يستولي المهاجمون الغامضون علـى القاعدة العسكرية من الجنود الأفغان عدة ساعـات، ثم يتخلَّوْن عنها فارّين بعد أن يصل الدعم الجوي الأمريكي.

ويبدو أن الرقيب مرتبك بعضَ الشيء من الهجمات التي عادت إلى المنطقة. وقال لي، وهو يعدل قبعة البيسبول التي يلبسها (...) «لقد تعرضنا لهجوم عنيف قبل أسبوعين... حصـل ستـة أشخاص من وحدتنا علـى أوسمـة القلـب الأرجـواني، كان المهاجمون في انتظارنـا، وكانوا يعرفون مكاننا بدقة... وكان الباكستانيون يراقبون كل شيء ولكنهم لم يحركوا ساكناً».

وأشـار بإصبعـه إلى نقطة تبعـد مسافة ميل أو أكـثر قائلاً: «أطلقـت الصواريخ من تلـك الهضبة من الطرف الباكستاني. إننـا نجتمع بالمسؤولين الباكستانيين كل شهر عند الحـدود.... يتبسمـون في وجوهنا، ونحن نتبسم في وجوههـم، ويحدثوننا بحديث هُراء، ونحن نحدثهم بحديث هراء، ثم بعد ذلك يشاهدوننا نتعرض للهجوم ولا يفعلون شيئاً. إن هـذا المكان مرتع الهلكة». سألته إن كان المهاجمون هم من طالبان، أم من الباكستانيين، أم مـن العـرب؟ فحدق بعينين نصـف مغمضتين وهو ينظر إلى الشمـس، ولإضفاء تأثير علـى مـا سيقول، بصق وقال معترفـاً: «ليس لدي أدنى فكرة عن هويـة الأشخاص الذين نقاتلهم».

بعـد أن استرحـت ساعتين قرب مدرج هبوط الطائـرات المروحية منتظراً رحيل كبار الضبـاط، لقيـت مرة أخـرى الشخص الأمريكي الـذي يحمل بندقية إي كـي 47 – وهو المتعاقد الأمنـي، فبدأني الحديث دون تحية، لكن بتحذير: «إنهم لن يسمحوا لك بالعبور إلى باكستان ... ولا تستغرب إذا طردك القائد الأفغاني». سألته إلى من يعود الضمير في قولك «إنهم»؟.

فـرد بإجابـة مختصـرة «ت. إف»، وهـي الاختصـار الإنجليزي لعبـارة وحدة المهمات الخاصة.

وواضـح أن مـا قمـت به مـن تصويـر في المنطقـة لم يَرُقْ لهـم. «لقد قمـت بتصوير قاعدتهـم وعرباتهم، ولو احتجزك الأشرار خلـف الحدود، فسوف يستخدمونها لمهاجمة هذا المكان».

وكان يبدو عليه الفضول لمعرفة كيف تمكنت من الوصول إلى هذا المكان دون أن أتعرض لأي هجـوم. «هل رأيـت الهوائيات البارزة على الزوايا الأربـع لتلك الحافلة؟ هذه أجهزة تشويش إلكـتروني. يقوم الناس هنـا بدفن الألغـام المضادة للدبابات، انتظـاراً لفرصة سانحـة لتفجيرها بوساطة جهاز خلوي أو جهاز تشغيل السيارة من بُعد. إنهم يستأجرون أولاداً صغـاراً للجلوس على جانب الشارع لإخبارهـم عند وصول الأمريكيين. لقد حاولوا قتـل مشـرف بالأمـس، وكان نظـام التشويش الإلكتروني هـو الشيء الوحيـد الذي أنقذ حياتـه. وتتسـاءل قوات الدلتا كيف وصلت إلى هنـا دون التعرض للأذى؟ وأنا متيقن من أنهم يبحثون عنك الآن». ثم ابتسم، وعاد أدراجه من حيثُ أتى.

توجهـت بعدها إلى نقطة الاستحكام، فسارع القائد الأفغاني شاه علم الذي كان قبلها يبدي لي التودد، إلى ملاقاتي متبرماً قائلاً بنبرة تنم عن شعور بالهلع: «لقد أتيت إلى هنا لالتقـاط الصور، ... لقد التقطـت ما يكفيك من الصور، فاذهب الآن ولا تلوِ». وواضح أنه تلقى أوامر لإخراجي من هذه الهضبة ودفعي إلى الاتجاه المعاكس نحو ميرام شاه. وجرياً مع التقاليد المعهودة لدى الأفغان، طلب مني مشاركتهم في تناول الغداء قبل أن أغادر.

جاء المتعاقد الأمني وأنا أجهز حقيبتي للمغادرة، وسألني عن الجهة التي سأقصدها، فقلت له: إنني أقيم في منزل رجل يدعى حجّي بالقرب من غارديز، قابلته قبل أسبوع في جمع ضم شيوخ القبائل في المنطقة. نال حجي شهرته حين كان قائداً لمجموعة من المجاهدين، وكان يعمل قبل ذلك في الشحن عبر الحدود، وتهريب المخدرات، وكان من مؤيدي طالبان حين كانت شهرتهم نابعة من سحقهم لزعماء الحرب لا من دعمهم للقاعدة. وهو الآن متقاعد، ولكنه يبقى رجلاً يُلجأ إليه لحل المشكلات ومساعدة الضعفاء. ودون أي تردد، دعاني إلى النزول ضيفاً في بيته مدة أسبوع بشرط ألا أكشف عن مكانه أو عن اسمه الكامل. ولما لم يكن لدي خوف من استنزاف الكرم غير المتناهي لهذا الرجل المسن، دعوت المتعاقد الأمني إلى مرافقتي إلى منزل حجي.

كان واضحاً أن فكرة الولوج إلى المناطق الخاضعة لسيطرة طالبان بمرافقة شخص غريب أثارت فضوله، وكان من المفترض أن يعود هذا المتعاقد إلى خوست لقضاء مدة للراحة والاستجمام؛ لذلك كان لفكرة الذهاب بسيارة أجرة بدلاً من قافلة تابعة للوكالات الحكومية الأخرى جاذبية غريبة. ذهب وأحضر حقيبته المهترئة وألقاها في سيارة الأجرة الأثرية ذات اللونين الأصفر والأبيض، ثم انطلقنا في رحلتنا، ولكنني أصررت على التوقف في سوق صغير تبعد أميالاً عدة عن القاعدة لشراء بعض الملابس الأفغانية. وبستين دولاراً فقط، تحوّل صديقي المتعاقد الأمني إلى فلاّح أفغاني ملتح بزيّه الكامل، من القبعة الصوفية، إلى القميص الأفغاني الطويل، والسراويل الأزرق الفاتح. وبعد أن ارتدينا تلك الملابس، كان مظهرنا يوحي بأننا أحمقان -أحمقان أفغانيان- ثم تابعنا المسير.

على الرغم مما صدر عن صديقنا المتعاقد من زمجرة ووعيد في بداية اللقاء، إلا أنه غير معتاد على أن يكون مكشوفاً بهذه الطريقة أمام الملأ. وحين كنا نقترب من نقاط التفتيش، كان لا يكف عن تذكيري بكيفية إخلاء السيارة من الجانب، وكيفية الاحتفاظ بالمسدس تحت رجلي، وكيف يمكن لزجاج السيارة أن يصد الرصاص القادم إلينا. وحين

اقتربنـا من سلسلة مـن المنعطفات الحادة التي تعـد علامة بداية صعودنـا إلى المناطق الجبلية، بدأت علامات الارتياح تظهر على صديقنا المتعاقد، وكان لدينا كثيرًا من الوقت للتحـدث في أثناء الرحلة. وفيما كانت السيارة تهتز وتضطرب في حركتها بسبب الطريق غير المعبد ذي الحفر، قبل المتعاقد أن يجيب على عدد من الأسئلة حول عمله بشرط عدم الكشف عن أي شيء يمكن أن يلحق ضرراً بمهمته، وألا أذكر اسمه ولا الوحدة التي ينتمي إليهـا. فقبلت بالشروط. أثـارت قصته إعجابي، وأنا أطبع مـا يقوله على جهاز حاسوب الجيب الذي كان معي.

إن ما تنظر إليه هو جزء من وحدة المهمات الخاصة 11، ويطلق عليها كذلك اسم وحدة العمليـات الخاصة المشتركة، وفيها بعض القادة الكبار وبعض الأقزام والجنود العاديين، غـير أن الفريـق فيه بعضـ القناصة، وهؤلاء في العـادة ثلاثة أو أربعة من قـوات الدلتا، وفريـق آخر مكـون من اثني عشر عنصراً من القوات الخاصـة، وضابطٍ من سلاح الجو لتنسيـق عمليات الإسناد الجوي، وضابط استخبـارات، وعناصر من الوكالات الحكومية الأخرى، وقرابة ثلاثين أو أربعين من العملاء الأفغان. وهؤلاء هم رأس الحربة هنا، وهم القناصة القتلة في الأدغال.

أما أنا، فأعمل بصفة متعاقد أمني، وقد دأبت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية على استخدام متعاقدين أمنيين مدنيين منذ عقود، وهم أشخاص لا ينتمون بصفة رسمية إلى الجيشـ، ولا إلى الحكومـة، ولا إلى الاستخبارات، ولقد كانـت بداية استخدامهم في فيتنام، حيث كانت الوكالة بحاجة إلى عملاء يمكن إنكار العلاقة بهم: أشخاص تستطيع الحكومة الأمريكية في حالة القبض عليهم أن تقول: إنهم لا يمتون إليها بصلة. وهذه الأيام تملك الوكالة الكثير من المال؛ لذلك فإن من الأيسر لها أن تتعاقد معنا بدلاً من أن تتولى تدريـب أشخاصـ جدد. وهناك نوعان من الجنود: جنود مرتزقـة، تتدلى كروشهم بفعل شـرب البيرة، غلاظ فظاظ، يلبسون الخواتم. وهؤلاء تشاهدهم في المدينة. أما الصنف الثـاني فهو نحـن، ونحن أشخاص نحب المحافظـة على لياقتنا البدنيـة، أعمارنا تتراوح مـا بين أواخـر العشرينيات إلى أواخـر الأربعينيات. كما أن هنـاك أشخاصاً يعملون من

الداخـل وأشخاصاً يعملون من الخـارج، وأشخاصاً من الداخل لا يمكنهم أن يعترفوا لك بأنهـم يعملون مع وكالة الاستخبارات المركزية؛ أمـا أشخاص الخارج فهم الذين يعزلون مـن الوظيفـة لسبب أو لآخر. وحـدث أن أخرج شخص من الخدمـة؛ لأن الوكالة أرسلت إليه نموذج ضريبة الدخل وكتب في الفراغ المقابل لكلمة «رب العمل»: وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية.

أكـثر العملاء الذيـن يعملون مـع الوكالة يقومـون بعملهم تحت «غطـاء مموه»، فهم يعملـون بصفـة مدنيـة أو عسكريـة قابلـة للتصديق ولكنهـم في الواقع مكلفـون بالقيام «بعمليـات سرية» وهذه العمليـات لا تظهر في سجل عملهم العسكري ولا يطلع عليها أحد. وذكر لي أيضاً أن أكثر العمليات شبه العسكرية تتولاها قوات الدلتا، ولم أر طَوالَ خدمتي سوى شخص واحد من قوات سيل في هذه الوحدات... وفي العادة يجري تجنيد هؤلاء من وحـدات الجيش ثم ينتسبون فيما بعد إلى الوكالة بصفة متعاقدين أمنيين، وينتقلون إلى العمل مع الوكالة بعد تسريحهم من الجيش مباشرة، وتبدأ إجراءات توظيفهم قبل موعد تسريحهـم من الجيش بوقت يكفي للاستقصاء عن خلفيتهم وأهليتهم للعمل مع الوكالة. وبعـد إتمام تلـك الإجراءات، يلتحقون بالوكالـة دون انتظار أو تأخـير. وفي العادة يتمتع الأفـراد العاملون في الجيش بسجلات نظيفة، فلا مشـكلات مالية، ولا قانونية ... وليس هنـاك نقصـ في المتطوعين ... بعض الناس يسخرون من الوكالـة، غير أن أفراد القوات الخاصة يبذلون قصارى جهدهم للعمل فيها. فأنت تأخذ كل ما تحتاجه، ولا أحد يتعرض لـك بالمضايقة، ولديك نظام خاصـ لتسلسل السلطة، ولا تخضع لسلطة القائد العسكري المحلي؛ فأنت لست ضمن النظام الفدرالي، ولا ضمن النظام العسكري.

وتابع المتعاقد قوله، إن العمل في أفغانستان هو في منتهى السهولة ... تسجل اسمك، ثم تخضع لبعض التدريب، ثم تأتي بالطائرة إلى هنا. وفي العادة تسافر عن طريق الطيران التجاري إلى طشقند [في أوزبكستان المجاورة] ومن هناك تأتي إلى كابول على متن طائرة عسكريـة، وعند وصولك تكون مجموعة من الجيشـ في استقبالك، فتذهب معهم وتبيت

في الفنـدق تلـك الليلة، ولا أحد يوجه إليك أي سؤال... وبعـد أن تمكث في المدينة يومين، تذهب إلى قائد القاعدة، وبعد أن تملأ النماذج المطلوبة، تأخذك الطائرة إلى خوست، أو غازني، أو قندهار، أو إلى أي مكان آخر.

والأجر الدارج الآن هو ألف إلى ألف ومئتين وخمسين دولاراً في اليوم. هذا فيما يخص المتعاقـد الذي يجتـاز المتطلبات الأمنية، وهذا الأجر هو أفضل مما يدفع في العراق، وأمَّا المـدة الاعتياديـة للوظيفة فهي ثلاثة أشهـر؛ لأنَّ أكثر الأشخاص يفقـدون أعصابهم إن تركتهم في هذا المكان أكثر من تسعين يوماً.

كان سائقنـا ومترجمـي دوك يحدقون بأبصارهم إلى الأمـام لرصد وجود أي علامة على حفر جديدة في الشارع، وهذه الحفر هي الأماكن المفضلة لدى طالبان لوضع الألغام الأرضية التي تفجر عن بعد. وكنت قد أخبرتهما أن المتعاقد الأمني هو مصوّر يعمل معي، وهـو يستمتع بهـذا الدور السري الجديـد لكونه مرافقًا لي. وكان هـذا المتعاقد يستخدم جهـاز تحديد المكان عن طريق الأقمـار الصناعية في متابعة الطريق والتأشير على نقاط التفتيش التـي يرابط فيها أتباع طالبـان وجنود زعماء الحرب الآخريـن. وهذه النقاط مـا هي إلا مطبات توضـع على الطريق ويحميهـا رجال مسلحون لإجبـار السيارات على التوقـف، غير أن سائقنا لم يعبأ بهم واستمر بالسـير دون توقف. حاولت أن أظهر نفسي بهيئة البشتون بقدر ما يسع إفرنجياً ذا عينين زرقاوين أن يفعل. غير أن صديقي المتعاقد بلحيتـه الكثيفة كان يبدو أفغانياً أكثر مني مهما اجتهدت. وعندما اجتزنا نقطة التفتيش أخفيـت نظاراتـي الشمسية في جيبـي، ورفعت المُلاءة البنية المتسخـة حول كتفي، ورحت أنظـر مـن النافذة، وحَرَصْتُ على ألا يظهرَ على قسمات وجهـي أيُّ مشاعرَ تَلفتُ النظر. وقـد مررنا بأربع من هذه النقاط بسهولة، في حين أن الشاحنات والسيارات الأخرى التي تنقل الركاب كان يطلب منها التوقف؛ لكي تخضعَ للتفتيش.

قـال المتعاقد: إن القاعدة العسكريـة الأولى التي عمل فيها هنا كانت مقامة على أبعد نقطة يمكن أن تصلها الطائرة المروحية: «ذهبت بالطائرة بعد العتمة في مهمة ليلة لنقل

الإمدادات إلى فريق من وكالة الاستخبارات المركزية مستخدمين طائرةً مروحيةً روسية؛ لأن الطائراتِ الأمريكيةَ يسهل تمييزها واستهدافها، وخرجت قافلة عسكرية من أربع شاحنات لملاقاتهم. نزل الفريق الجديد من الطائرة، وصعد الفريق القديم مكانهم، ثم غادرت الطائرة إلى الوجهة التي أتت منها». حين شاهدت التضاريس عبر منظار الرؤية الليلية، كان كل ما خطر ببالي هو سطح القمر، غبار ناعم، حجارة وصخور، وتراب، وهضاب منخفضة تلتف لتشكل جبالاً على كل جانب، وجميعها خضراء. لم يكن هناك شيء سوى النجوم، والصخور، وقلعة مشيدة من الطين من العصور الوسطى. وفي داخلها وجدت رجلاً ضخماً ملتحياً يلبس قبعة غربيّة، وكان يجلس يتدفأ حول برميل من الحديد أشعلت فيه نار من الديزل. وحين رآنا، ضحك ضحكة مجنونة، وكان لهيب النار ينعكس على وجهه، فصاح منادياً: «أيها الرجال، مرحباً بكم هنا على حافة الإمبراطورية!» ويا إلهي كم كان لتلك الكلمات وقع مخيف في نفسي حين سمعتها.

كانت تلك النقطة في الأصل منزلاً يملكه شخص أفغاني قبل أن ينتقل إلى يد الأمريكيين. ويمكنك مشاهدةُ مثل هذا المكان في مئات من الأفلام، كحرب النجوم، ومـاد ماكس (ماكس المجنون)، وبو جست (بادرة نبيلة)، وعشرات أفلام الكاوبوي. إنه يمثل آخر نقطة تنتهي عندها الحضارة قبل أن تصل إلى البربرية والوحشية... وقامت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية باستئجار المنزل؛ لأنه يقع على تقاطع يشهد حركة مكثفة لاختراقات طالبان والقاعدة القادمة من باكستان. وحصلت على أول قرينة لإثبات هذه الحقيقة حين رأيت خريطة في مكتب وكيل وزارة الأمن مكتوب عليها «سري جداً» وقد أشّرَ على الخريطة بدوائر خضراء صغيرة للدلالة على الأماكن التي يوجد فيها العدو. والمشكلة هي أن هذه الدوائر كلها كانت في باكستان مثل مدينة ميرام شاه ووانا.

حين وصلت إلى هنا، أرسلت أنا وجندي آخر لمقابلة حرس الحدود الباكستانيين. قطعنا ثلاثة أو أربعة أميال بالسيارة. ويبدو لي أنه لم يسبق لهم أن شاهدوا رجالاً أمريكيين بملابس مدنية يحملون السلاح، إذْ صوبوا أسلحتهم ورشاشاتهم تجاهنا

حـين اقتربنا منهم، وعاملونـا بعدوانية وفظاظـة، وقالوا لنا: إن ضابـط الاستخبارات المسـؤول سيأتي لمقابلتنا غداً، وفي اليوم اللاحـق اجتمعنا جميعاً في خص وحولنا جوالة من وزيرستان. قمنا بجولة أولية، ثم عدت أنا وزميلي لإحضار قائد النقطة ومعه ضابط الاستخبـارات، ومترجم. أخبرهم المترجم عن طبيعة عملنا هنا، ولماذا جئنا، والمجالات التـي نرغـب منهم أن يتعاونـوا معنا فيها - «هل يمكننـا الاتصال بكم؟»، قـد نلجأ إلى مطـاردة أحد ما عـبر الحدود، ..إلخ. وقالوا لنا: إنه ليس لديهم مشكلة في ذلك ما دمنا لا نتوغل كثيراً داخل الحدود. لم يذكروا لنا شيئاً عما سيحدث لو وصلنا إلى البلدة التي تبعد ثلاثة أميال من الحدود.

وقـال لي المتعاقـد: إن البحث عن ابن لادن ليس كالبحث عن صدام حسين، الذي كان يبحـث عنه آلاف من الجنود تحت كل بسـاط وكل شجرة. وحتى الباكستانيون أنفسهم لا يمكنهم العمل في المناطق القبلية دون التعرض لردود فعل عنيفة.

وتابـع المتعاقد قائلاً: «كانت مهمتنا هي هـز شجرة التفاح، ... لم نكن نبحث عن ابن لادن مـن الأعلى، بل كانت إستراتيجيتنا تركز على صغـار الأتباع -وهي الطريقة المتبعة في القبض على عصابـات المخدرات في أمريكة-. ضيّق الخناق علـى الصغار إلى درجة الإرباك؛ كـي يتصلوا بالمسؤولين الأعلى منهم مرتبة. ثم نقوم برصد هذه المكالمات وتبدأ الملاحقـة بعد ذلك، فنحن قَتَلَـةٌ مستأجرون -بنادق لها أرجـل- ونحن هنا لتوفير الأمن لضابـط الاستخبارات، والقبض علـى أشخاص معينين، أو القيـام بعمليات دهم. ويدير القاعدة موظف من وكالة الاستخبارات المركزية، وهو لا يعيرنا أي اهتمام».

وقـال المتعاقد: إن طالبان لم تكن على رأس سلم أولوياتهم. «القضية ليست الملا عمر، بـل كنا نبحث عـن القاعدة... كنا نتعقب عناصر القاعدة». إننـا لا نحاول تطوير مصادر إستخباراتية داخل المدارس الدينية، بل نبحث عن الأشخاص الذين يرتبطون بابن لادن.

«نطـرح أسئلـة بسيطة مثل أين ينام هؤلاء في الليل؟ ومتى ما عرفنا مكان نومهم، فإنه يمكننا مراقبتهم. وحين نعثر على المنزل، فإن باستطاعتنا رصد أي وسيلة اتصال إلكترونية،

حيث نرسلها بعد التقاطها مباشرة إلى لانغلي[1]، وإلى شيلتنهام [المركز الرئيس لجهاز إم آي 5][2]، أو واشنطن.... وبعد أن نعثر على مقرهم، فإننا لا نستعجل في توجيه ضربة إليهم، بل نتركهم يتحدثون؛ كي نرصد مكالماتهم، ونستخدم تلك المعلومات الاستخباراتية في القبض على الأشخاص في المستويات الدنيا، ويمكننا تحليل بصمات أصواتهم وتحديد هوية الشخص الذي يتحدثون إليه إذا كان صوت ذلك الشخص مخزناً في قاعدة البيانات لدى الوكالة. وإذا اتفقوا على عقد اجتماع، أو إذا حددوا مكاناً ما للالتقاء، فإن شخصاً منهم سيصاب في اليوم المقبل على وجه مؤكد. وإذا لم يتصلوا بشخص مسؤول أعلى في المنظمة، فإما أن نلقي القبض على واحد منهم، أو أن ننهيَ وجودهم على وجه الأرض. وإذا فعلت ذلك مرة أو مرتين، فإن من شأن ذلك أن يلقيَ الذعر في نفوس الباقين».

لاحظت في أثناء الحديث أن دوك المترجم الذي يرافقنا كان يستمع إلى الحديث باهتمام، ثم قام المتعاقد بتعديل قبعته الأفغانية الصوفية ذات اللون البني وهو ينظر في مرآة السيارة، وكان معجباً بمظهره الأفغاني، قبل أن يتابع حديثه:

المشكلة هي أننا نقوم بهذا كله داخل الحدود الباكستانية، ... ولهذا السبب برزت الحاجة إلى المتعاقد الأمني الخاص؛ لأن الحكومة يمكنها أن تقول: «نحن» لا نعمل في الأراضي الباكستانية. ولكن كن على يقين مطلق أن الفتية البيض يدخلون باكستان كل يوم ويطلقون النار على الأعداء».

«قائد النقطة العسكرية هو الشخص المسؤول، وضابط الاستخبارات منهمك في عمله في الداخل، ولم أشاهد ضابط الاستخبارات طَوالَ الشهر الذي أمضيته في تلك القاعدة سوى مرة واحدة. إن هذه القاعدة هي عملية تنفذها وكالة الاستخبارات المركزية ولكن

1- مقر مركز قيادة سلاح الجو الأمريكي.

2- جهاز الاستخبارات البريطاني المسؤول عن الاستخبارات الداخلية والنشاطات الاستخبارية المضادة في الأراضي البريطانية، والعبارة هي اختصار مكون من الأحرف الأولى من عبارة الاستخبارات العسكرية الدائرة 5. وهناك أيضاً الدائرة 6 (إم آي 6) المسؤولة عن الاستخبارات الخارجية. والتسمية الرسمية الجديدة لهذين الجهازين أصبح خدمات الاستخبارات السرية واختصاراً إس آي إس.

جرى وضع عدد من الجنود في الخارج لإظهارها بمظهر القاعدة العسكرية، والوكالة هي التي استأجرت الأرض التي أقيمت عليها القاعدة، ويقوم الجيش بتنفيذ عملياته الخاصة بـه، ولكنهم يفعلون ذلك بعد إخبار قائد القاعدة بما سيفعلونه، وأمَّا وكالة الاستخبارات المركزيـة فلا تـزال تعمل ضمن الأقسـام الخاصة بكل دولـة؛ فـإذا أردت أن تذهب إلى باكستـان، فعليـك أن تتصل بقائد الوحدة المسؤول عن نشـاط الوكالة في إسلام أباد، ولا يمكنه طبعاً أن يعرقل المشروع».

يقضي المتعاقدون أكثر أوقات فراغهم في الجري بين مدرج هبوط الطائرات المروحية والقاعدة.

«إننا نحب المحافظة على لياقتنا البدنية، وحين تكون في المعركة، عليك أن تستخدم كل ما لديك من قوة، وعليك أن تأخذ معك بعض الأشخاص، وإن كنت صفر اليدين. بعضنا يتعاطـى منشطات الستيرويد. وأمَّا حبوب دي بولز فتساعد على زيادة حجم العضلات، كمـا تساعـد حبوب سستانون في الحفاظ على الزيادة التـي اكتسبتها، ولا يعترض أطباء الجيش على ما نفعل. وحين ترى شخصـاً ضخم الجثة، فتوقع أنه يتعاطى هذه الحبوب. غير أننا نستخدمها ضمن الضوابط».

ثم نظر المتعاقد إلى التضاريس القاحلة وإلى القلاع الشاهقة المبنية من الطوب حولنا. وحوّل بندقيته، وابتسم. في هذه الأيام، تسعى الوكالة إلى تجنيد المورمان، والعائدين إلى الديـن المسيحي من جديد. إنهم يبحثون عن الأشخاص الذين يتمتعون بحس وطني قوي وبنزعـة نحو عمـل الخير. على الأقل كانـت البداية كذلك.... فأنـا لا أشرب الخمر، ولا أدخن، ولا آكل من كل ما هب ودب، وأردف المتعاقد قائلاً، وهو يبتسم: لكن نقطة ضعفي الوحيدة هي البيبسي والنساء.

ومـع وصولنـا إلى نهاية مؤخـرة سلسلة الجبـال التي تسيطر عليهـا طالبان، شاهدت خـارج المنـزل فرن غاز مألوفاً لـدي، وهو العلامة التي أعرف بهـا منزل حجي، وظهر لي أن المتعاقـد كان سعيداً بتسجيل علامات الطريق ونقاط التفتيش على جهاز تحديد المكان

الذي كان بيده. يسكن حجي في واحد من أكبر المنازل في منطقة غارديز، وهذا بذاته دلالة على أهميتـه ومكانته الاجتماعية، وتمتد الجدران المحيطة بمنزله إلى أكثر من 275 متراً طـولاً وبارتفـاع 9 أمتار. وقد أقيم المنزل على سهل فسيـح خارج حدود المدينة على مقربة من القاعدة الأمريكية في غارديز، وخلفه الجبال التي تسيطر عليها طالبان. وإلى الجنوب بين الجبال يقع وادي شاهيكوت الفظيع الذي كان مسرحاً لعملية أناكندة في آذار/ مارس مـن عـام 2002، وإلى الخلف منها يقع جبـل هوارخيلي الذي يضم الملجـأ الضخم الذي شيده ابن لادن للوقاية من القصف السوفييتي، وتمتد حقول الأفيون إلى الشمال والشرق. وفي داخـل المنزل، أقام حجي بيتـاً خاصاً للضيافة، ومنطقتين أخرَيـين مسوّرتَيْن، واحدة لأسرتـه، والأخرى لزراعة المحاصيل. وقد شيد هذا المنـزل ليوفر أقصى درجات الدفاع، فجعـل في كل زاوية من زوايا السور برج حماية مربع الشكل، وفي كل قسم من هذه الأبراج مـا يكفـي من الأسلحـة والذخيرة، وحتـى المرحاض الخارجي يوجد علـى سطحه ثلاث منصـات للبنادق الرشاشة، وكان على كل برج من الأبـراج المحيطة بالمجمّع مِدفع مضاد للطائـرات، غير أن حجي أزالها خوفاً من التعرض لقصف الأمريكيين. ولا تتوقف حركة طائـرات أباتشي، وبلاكهوك، وتشينـوك، وقاذفات القنابل بي - 1 بي، والطائرات المقاتلة النفاثة في السماء فوق منزل حاجي من الصباح حتى ساعات متأخرة من الليل.

استقبلنـي حجـي بمعانقة كمعانقة الدب وبقبلتين كأنني ابـن له هجرته ثم عدت إليه نادمـاً، ولاحـظ حجي على الفـور أن صديقي هو أكثر من مجرد مصـوّر. فبالإضافة إلى حملـه بندقية كلاشنكوف، ولبسه نظارات أوكلـي الشمسية، أبدى المتعاقد عادته اللافتة للنظر في التقدم والتأخر مسافة 20 متراً وكأنه يقوم بعملية تمشيط أمني، وكان يتفحص ببصـره كل غرفة وكأنه يبحث عن عناصرَ معادية. ولكن لما كان المتعاقد صديقاً لي، فقد لقي الترحاب من دون سؤال.

منـذ أن وصلـت إلى منـزل حجي قبل يومين، جـرت العادة على تقـديم ثلاث وجبات طعـام في اليوم على بساط يوضع على الأرض، ويتبعها عدد غير متناه من أكواب الشاي،

وساعـات مـن الحديث عن طريق المترجم. وهـذا كل ما كنا نفعله منـذ وصولي إلى هذا المـكان. ومـع أن حجي احتـاج إلى بعض الوقت قبـل أن يبديَ ارتياحاً تجاهـي، إلا أنه في النهاية أعرب عن رأيه بصراحة تجاه الوضع القائم في أفغانستان.

انصـب حديثنـا في الليلة الأولى على قضايا عادية وصغـيرة، وكان حجي يتخذ موقفاً محايـداً. نعم، كان يدعم الأمريكيين، مع أنه يبدو غاضباً من جرَّاء ما فعلوه عام 2001. وهـو يعتقـد أن طالبان قد انتهت. وفي الليلة اللاحقة، ناقشنـا بعض القضايا المحددة. لا توجـد حكومة هنا، بل عنف، ومدرسة واحدة دون معلمين. وبحلول الليلة الثالثة، وبعد أن رفعـت مائـدة العشاء، وقدّم الشـاي الأخضر، أصبح حجي أكـثر صراحة في التعبير عن آرائه. سألته عن صحة التقارير التي تتحدث عن عودة طالبان.

«نعـم، إنهم يأتون إلى هنـا... وعادة ما يكون ذلك في الليل، ويطلبون الطعام والمأوى، ولا يمكثـون طويـلاً، ونحـن لا نسألهم عن وجهتهـم التي يقصدونهـا. وفي بعض الأحيان يخيفـون النـاس، وفي بعض الأحيان يدفعون ثمن ما يأخذونه، لكن يبدو أنهم يعرفون إلى مـن يتحدثون. وفي كل مجموعة مكونـة من عشرين من عناصر طالبـان، هناك أربعة أو خمسـة من العرب. وهـؤلاء بحاجة إلى أن يكونوا مع الأفغان؛ لأنهم لا يعرفون المنطقة ولا يتحدثون اللغة المحلية».

يتمتع حجي بمركز اجتماعي يخوله إبداء رأيه في طالبان، غير أنه يرى ضرورة الحذر حين مناقشة مسألة العرب. وهم الذين تطلق عليهم الولايات المتحدة وصف القاعدة: «إن الناس هنا لا يحبون العرب؛ لأن العرب متعجرفون ويتصرفون وكأنهم أفضل من الأفغان وأعلـى منهم درجة». ثم ضحـك وقال: «اعتاد الناس هنا القـول: إن العرب أحرص على تصوير أفلام الفيديو من حرصهم على القتال».

واضـح أن القاعدة لا تـزال موجودة هنا، وأنها ترهب النـاس. وحين اجتمعت بشيوخ قبائـل المنطقة قبل حلولي ضيفاً على حجي، طلبـت أن أمكث مع زعيم قبلي آخر يسيطر علـى منطقة حدودية، فـرد الرجل المسن ذو اللحية البيضاء الطويلة بقوله، «على الرحب

والسعة، لكن العرب سيتركون رسالة على الباب تقول: إذا لم تغادر في اليوم القادم، تقتل أنت أسرتك»، فشكرته على عرضه استضافتي، وقبلت دعوة حجي بدلاً من ذلك.

أخبرني حجي أنه: «في عهد الجهاد ضد الروس، كنت تجد أناساً في كل قرية ينشطون لطهو الطعام لنا وتقديم المساعدة ... لم يقلق أحد من الخيانة، أو من انكشاف أمره، ولم يكن هناك حرس على الأبواب. أما الآن فنجد أن هؤلاء الأشخاص أنفسهم ينتابهم الخوف حين يشاهدون العرب أو أتباع طالبان، وأصبح لزاماً على العرب الآن أن يستخدموا هواتف نقاله تعمل عن طريق الأقمار الصناعية في اتصالاتهم، وأن يتسللوا إلى القرى في الثالثة صباحاً، ويرحلوا قبل بزوغ فجر اليوم الثاني».

(...) وحين سألته عن الملّا عمر، رد علي حجي فوراً: «كان الملا عمر في ميرام شاه في أثناء شهر رمضان، وانتقل الآن إلى كويتا لقضاء فصل الشتاء هناك». وكلام حجي في هذه المرة يطابق الحقيقة. ولم يذكر لي من أين حصل على هذه المعلومات، ولكن توقعاته جاءت مطابقة للتصريحات التي صدرت عن الرئيس الباكستاني برويز مشرف والرئيس الأفغاني حامد كرازاي حول رؤية شهود عيان الملا عمر وبعض قادة طالبان في الصلاة في كويتا.

ومع أن حجي عمل في صفوف طالبان، فإن لديه مشاعر مختلطة حول حكمهم لأفغانستان: فهو يقول: «التقيت الملا عمرَ وغيرَه من قادة طالبان مرات عديدة، وهم ليسوا بالأشخاص المثقفين، ولا حتى بالمسلمين الورعين. لقد أخذت طالبان كل المومسات إلى قندهار، وكان العرب يعاشرونهن. وفي ذلك الوقت، كانوا يرون أنفسهم طبقة منفصلة عن بقية الناس، وكان جندي المشاة في صفوفهم أفضلَ وأوثقَ من زعيم قبيلة». ثم يوضح حجي كلامه: «هناك فصيلان من طالبان: فصيل الجهاديين الذين يسعَوْن إلى الشهادة، وهناك الذين يقاتلون من أجل المال».

(...) ويتنبأ حجي بمستقبل سوداوي مماثل للأمريكيين: «أضمن لك أن الأمريكيين لن ينجحوا في أفغانستان؛ لإنهم يعتمدون على الأشخاص الذين يدفعون المال، وهم الآن

محاطـون بأشخاص يطمعـون في الحصول على المـال، لقد ابتعدوا عن زعمـاء القبائل، وأقاموا علاقات صداقة سيئة».

لم يفصـح حجي عـن ميوله الشخصية تجـاه هذا الطـرف أو ذاك، ولكنه رد بمرارة ظهـرت في نبرة صوته: «إنني أحاول أن أنأى بنفسي عن هذه الأمور». ومع أن من الراجح أن لـه ميولاً شخصية غـير معلنة، إلا أن من الواضح أن أياً من الطرفين لا يحظى بدعمه الكامـل. وربمـا كان ذلك بسبب أن كلا الطرفين [أمريكـة وطالبان] ينظران إليه بوصفه زعيماً قبلياً ليس له وزن في النظام الجديد.

ازدادت محبتي لحجي بعد احتكاكي به، إذ كان يعاملني معاملة الأب لابنه، وكان يصرّ علـى أن أجلس عن يمينـه، وكان يقدم لي أفضل قطعة لحم في القصعة، ولم يكن الطعام يرفـع عن البساط البلاستيكي إلا بعد أن آكل وَفق رغبته، وكان يحرص على أن أجلس في أدفـأ مكان في الغرفة، وكان يلحّ عليّ أن أُعفيَ لحيتي، وكان يربت على خدي كل يوم، كأن ذلك سيسارع في نموها. كان كرم حجي الزائد هو الذي دفعني إلى دعوة صديقي المتعاقد الأمنـي لزيارة المنـزل، غير أن الخرق الذي صدر عن المتعاقـد في تلك الزيارة، قد وضع ذلك الكرم على المحك.

في أثناء تناولنا طعام العشاء في الليلة التي وصلنا فيها إلى المنزل، أراد حجي أن يعرف كل شـيء عـن رحلتي، وكان يدفـع بالطعام أمـام المتعاقد، قطعاً منتقاة مـن لحم الضأن المطبـوخ بالزيـت مع خبز طازج، بالإضافة إلى طبق صنعتـه زوج حجي -خصيصاً للضيف- وهـو طبق مـن اللبن الخاثر مسكوب عليه زيت. أبقى الضيف الجديد يديه مكتوفتين وكان يتمتم، «عليّ أن أحافظ على نسبة 10% من الدهن في الجسم»، وقام حجي بعدة محاولات لإقنـاع الضيف بـالأكل قبل أن ييأس منـه، وكان يحدق به ثم ينظـر إليَّ مكسورَ الخاطر، فقلت للمتعاقد: «تظاهر بأنك تأكل شيئاً، وامتدح الطعام»، ولكنه كان يقف من حين لآخر في أثنـاء تنـاول العشاء مستأذناً بأنه يريد أن يصـوّر بعض أفلام الفيديو. وحين خرج من الغرفة، نظر إليّ حجي وسألني عن طريق المترجم: «ما شأن صديقك؟».

وكان هـذا المشهد يتكـرر في طعام الفطـور، والغداء، والعشاء على مـدى ثلاثة أيام. وكان يشاركنـا اثنان من أبناء حجـي، ولفيف من السكان المحليين الذين يأتون إلى منزل حجـي طالبين منـه إسداء معروف لهم. وجاء أخو حجي يرافقـه حفيده البالغ من العمر ثلاث سنوات، وطلب إلي أن أصلح له هاتفه الذي يعمل عن طريق الأقمار الصناعية، وهو هاتف لا يزال بالإمكان استخدامه لإجراء مكالمات مجانية على حساب وكالة الاستخبارات المركزيـة الأمريكية. وكان المتعاقد يلتزم الصمت طـول الوقت، ويتابع الحديث باهتمام، لكنه على ما يبدو لا يجيد التفاعل مع الأفغان من غير العملاء والمخبرين. استمر المتعاقد على إصراره في رفض الأكل ولو كان ذلك حفنة من الرز، وأصبحت أخشى نظرة التعجب التـي ترتسم على وجه حجي حين ينظـر إليّ بعد رفض صديقي الأكل. وكان حجي يذهب إلى السـوق بنفسه لشراء ما يناسبنا لتحضير الطعام، ويعتذر عن عدم تقديم البيض مع الفطور؛ لأن الدجاج لا يضع البيض في مثل هذا الجو البارد. وكان المتعاقد يقيم أَوَدَهُ على قطـع مستطيلة مـن الشوكلاته من نوع أتكينز، وعلى رشفات مـن المياه المعدنية من عبوة بلاستيكية كان يبقيها في حقيبته، وكان يفعل ذلك في الصباح وقبل النوم.

رحّـب حجي بالمتعاقد، ولكـن المشاعر اختلفت عما كانت عليه حين حللت عليه ضيفاً وحدي!! لقد تحولـت ضيافته إلى ضيافة رسميّة، مصممة لقيام حجي بمسؤولياته؛ لكي يوصـل رسالتـه إلى شخص هـو في نظر أكثر الأفغـان من الأعداء. أصـرّ حجي على أن يصـل رأيه بالهجوم الذي وقع منذ وقت قريـب إلى أعلى مستويات القيادة في الحصون الأمريكيـة. وأخـيراً، وفي اليـوم الثالـث بحضـور المتعاقد، خـرق حجـي البروتوكولات البشتونيـة، وراح يتحـدث بصراحـة أمـام ضيوفـه الأمريكيين الغامضين عـن مشاعر الإحبـاط لـدى زعماء القبائل تجاه الأمريكيـين. لقد وصلت إليه أخبـار عن موت أسرة مكونـة مـن ثمانية أشخاص في قريـة قريبة تدعى سيد كـرم. ولم يوضح لنا حجي كيف وصلته التفاصيل بهذه السرعة.

قـال لنـا حجي: «كان يعيش سفاك في تلك القريـة ثمانية عشر عامـاً وكان يهدد بقصـف الاجتماع الـذي يعقد في كابـول، اتصل أحـد المخبريـن بالأمريكيين ودلّهم

علـى مكانه، لكن قبل مجـيء الأمريكيين بوقت طويل كان هذا المجرم قد لاذ بالفرار. وحصل أن كان في المنزل الذي قصفه الأمريكيين رجل آخر اختبأ هو وأسرته فيه بعد أن قتل رجلاً آخر إثرَ شجار على قطعة أرض. فوجد ذلك الرجل وزوجه وأولاده الستة متفحمين تحت الأنقاض».

وقال حجي: إن الناس في القرية مستاؤون؛ ليس من المصير الذي لحق بالقاتل؛ لأن ما حل به كان نوعاً عجيباً من أنواع العدالة؛ بل من مَقْتَل زوجته وأولاده الأبرياء الذين ليس بينهم وبين الأمريكيين ولا سكان القرية شجار.

«لقـد كان بالإمـكان إلقـاءُ القبض على الرجـل السفاح باستخـدام أدنى قدر من الوسائل العنيفة، ولكن الأمريكيين اختاروا مهاجمة المنزل بطائرات وأسلحة مصممة لتدمير الدبابات».

إن مـا يحـدث واضح تماماً في ذهن حجـي: «المخبرون والجواسيـس يجنون المال من الطرفين». قال المتعاقد: إنه يفهم ذلك، وانتهت وجبة الطعام بصمت.

بعـد تنـاول طعام الإفطـار، شكرت حجـي على حسن كرمـه وضيافتـه، وتحدث إلي كالدجاجة التي ترعى صغارها، يوجهني للاستعجال وعدم العبث بالكاميرا التي أحملها. ومع بزوغ ضوء النهار، استعجلنا حجي في ركوب السيارة والانطلاق قبل أن يرانا أحد في منزلـه. وكان يثق بحكم السـكان المحليين الذين زاروه في أثناء وجودنـا في الأيام القليلة الماضية، ولكن إذا ذاع الخبر بأن أشخاصاً أمريكيين غير معروفين مكثوا في منزله أياماً، فإن عيون الشر ربما تحيط بمنزله. وفي الأفق كانت مراوح طائرة بلاكوهوك تشق طريقها عبر هواء الصباح البارد.

وفي طريق عودتنا باتجاه الحدود، أراد المتعاقد أن يقف عند إحدى القواعد العسكرية ليتحدث إلى شخص من الوكالات الحكومية الأخرى، وهذا الوصف (الوكالات الحكومية الأخـرى) هـو عبارة عن مسمـى آخر لوصف كبـار القائمين على العمليـات السرية التي

لا تتـدرج ضمن الهيـكل العسكري التقليـدي. وكان المتعاقد يبدو متحفـزاً لنقل احتجاج حجي حول إفراط الأمريكيين في استخدام القوة، واعتمادهم على المعلومات القادمة من الجواسيس والمخبرين؛ وجلست أنا أنتظر في الخارج.

وبعد دقائق معدودة، ظهر المتعاقد وهو يهز رأسه: «يبدو أن الضابط المسؤول لم يكلف نفسـه مشقة القيام من سريره ليقول مرحباً. واكتفـى بإرسال المراسل المحلي ليقول لي: إنه يعلم بهذه المعلومات».

أراني المتعاقـد رزمة من الروبيات الباكستانية القذرة، وقـال وهو يهز رأسه متعجباً، «قـال لي الحقـير شكراً وهذه بعض الروبيات لدفع أجـرة التاكسي... تقضـي السياسة المتبعة بدفع شيء ما لكل شخص يأتي بمعلومات استخبارية».

ثـم تأمّل الروبيات المتسخـة، وهزّ رأسه ثانية، وقال وهو يدخل السيارة: «هذه مفسدة كبيرة. فأي حافز أفضل لتقديم معلومات كاذبة إلى الأمريكيين من أن تأخذ عليها مكافأة من المال؟».

وحتـى نكون منصفين، فإن فكرة أن يدخل مدني أمريكي مسلح مشياً على قدميه إلى قاعدة عسكرية ومعه معلومات معينة ربما تجعل من أي موظف رسمي يتريث قبل أن يفعل أي شيء بها، ذلك أن الجيش لا يستقي معلوماته إلا من مصادر استخبارية مؤسسة. وتعد المعلومـات التي يتقدم بها أشخاص عابرون من أضعف المعلومات الاستخبارية، ولكن من الواضح أن ما أزعج المتعاقد هو أنه تلقى رزمة من الروبيات الملوثة.

وقال المتعاقد: إن الاعتماد على المعلومات الاستخبارية غير الصحيحة وغياب التعامل مـع السكان المحليين، قـد ضاعف من المشكلات الأمنية، وأضـاف، «حين تدهم مدرسة -أي المدارس الدينيـة- فإن السـكان المحليين يغضبـون. ولا تجد فيها دومـاً أشخاصاً أشراراً، ولكن الجميع يطرحون على الأرض، وتوضع القيود في أيديهم وأرجلهم، وتغطى رؤوسهـم، ويوسمـون. وحين تنسى أن تعطي كل واحد منهـم مئة دولار قبل أن تخرج من البـاب، فإنهم سيقطعون علـى أنفسهم عهداً بالثأر منك على مـا فعلت، وسوف يفعلون

ذلـك. وفي المرة القادمة حين يأتـي الأمريكيون بدورية في سيـارات الدمبفي[1]، فسيكون الفخ جاهزاً لهم».

ويذكـرني هذا الكلام بالمثل البشتـوني الذي سمعته من حجي قبـل أيام: «إذا أخذت بثأرك بعد مئة عام، فأنت مستعجل».

وعلـى الرغم من المعاملة التي لقيهـا المتعاقد من موظف الوكالات الحكومية الأخرى، فإنه يصر على أن الأشخاص الذين يعمل معهم مباشرة قد بدؤوا بإدراك القضية وأخذوا يطـورون أساليبهـم في جمع المعلومـات. إننا نريد الآن أن ندخـل إلى عقول الناس الذين نتعامـل معهم. نريد تأسيس علاقات لطيفـة، أكثر ارتباطاً بالعلاقة الشخصية، بدلاً من أن تكون مؤسسة على الحافز المالي.

ويضيـف المتعاقـد، «في السابق، قال رمسفيلد: إننا ربمـا نصنع من الأعداء أكثرَ مما نقتـل ... يـا للغباوة .... ولكـن الأمور الآن تتغير. إننا لا نتعامل كثـيراً مع القادة المحليين الأفغـان. ولا نلقـي بالاً لمـا يقوله الباكستانيون؛ لذلـك تجد أنه يسمح لنـا بالتوغل داخل باكستـان... ولسبب أو لآخـر، لا تزال باكستـان كالكنيسة الكاثوليكية، حيـث يلجأ إليها بوصفهـا حرماً آمناً». وأضـاف، «إن الأشخاص المخربين في داخـل باكستان يستخدمون الحماية الباكستانية لضرب الأمريكيين داخل أفغانستان ثم يفرون عائدين إلى باكستان؛ لأنهم يعلمون أنهم لن يلاحقوا داخل باكستان. وآمل أن يتغيّر هذا الوضع».

إن العمليـات السرية مستمرة في الوقت الراهن، وتلجأ قوة المهمات الخاصة إلى البحث عـن أسباب لعبور الحـدود، كما يقول المتعاقد. قد يحتاج مـدني أمريكي يعمل في باكستان إلى المساعـدة، وهـو ما يعطي الجيش الأمريكي سبباً لعبور الحدود لتقـديم الدعم، أو في

1- المقصود هنا سيارات الجيب رباعية الدفع التي دخلت من عهد قريب الخدمة في الجيش الأمريكي ماركة همفي، وهذا الاسم هو اختصار محور من عبارة (عربة مرنة الحركة متعددة الأغراض) ولكن المتحدث استبدل بالمقطع الأول من الكلمة (hum) كلمة (dumb) التي تشابهها في الوزن وتعني «الغبي» للدلالة على قصور تلك العربات وعدم نفعها ولا سيما في مواجهة الألغام الأرضية والعبوات الناسفة التي تفجر من بعد.

obeikandl.com

حالة المطاردة الساخنة، أو لاستدعاء نيران المدفعية، أو الدعم الجوي لملاحقة «الأشخاص الأشرار» الغامضين. ولكن إلى أن يفعلوا ذلك، فإن الحرب الخفية تعتمد على رجال، كالأشخاص المتعاقدين، لديهم عزيمة في العمل والقتال في أماكن نائية، بعيدة عن مدى القوة العسكرية الأمريكية. سألته هل كان هناك خطط لإنقاذهم داخل الحدود الباكستانية إذا فشلت مهمتهم وتعرضوا للخطر؟ فقال: «خطة الإنقاذ هي، إذا عبرت الحدود إلى باكستان، فسيكون حبلك على غاربك، ولن تأتيَك طائرة لانتشالك، فأنت في الهلكة إذا وقع منك خطأ ما». غير أن تلك العرضة للمخاطر هي عنصر جوهري في عالم المتعاقد الأمني. ويضيف المتعاقد: «فأنت لست ضمن الهيكل الفدرالي ولا ضمن الهيكل العسكري... إنك شخص يمكن إنكار الصلة به، ويمكن التخلص منه بسهولة، ويمكن محوُه».

إن هذه الاستقلالية -وما يلازمها من سرّية- هي جزء من دستور المتعاقد الأمني. وهذا الدستور يجب أن يبقى مصاناً حتى بعد الموت من وجهة نظر المتعاقد الأمني. ويقول المتعاقد: «حين يلقى أحدنا حتفه، فإن ذلك بسبب خطأ ارتكبناه... لقد فقدنا اثنين من الرفاق في كمين نصب لهما، وفقدنا ضابط استخبارات في أثناء التدريب. هذا إلى جانب قضية [جوني ميتشيل] سبان الذي قتل في أثناء الاستجواب، مما يجعل مجموع عملاء وكالة الاستخبارات المركزية الذي لَقُوا حتفهم في هذه الحرب أربعة». وقد جرت عادة وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية على عدم كشف هُوية العملاء الذين يعملون فيها وإن قتلوا. ولكن في قضية سبان، قررت الوكالة أن نجوميته المغْفلَة يجب أن توضع على جدار الشرف في وقت كانت الوكالة أحوج ما تكون فيه إلى بطل علني يشار إليه بالبنان. «وقد اتخذ ذلك القرار بعد 11 أيلول/ سبتمبر بغية تلميع صورة الوكالة. إنه لا ينبغي الإساءة إلى بطل ميت بهذه الطريقة، لهذا السبب أعتقد أن الرجل الثاني في وكالة الاستخبارات المركزية قرر أن ينتزع بعض المجد ليغطيَ به سجل الأخطاء التي ارتكبتها الوكالة منذ حادثة خليج الخنازير[1].... لقد تعرض جورج تينيت لنقد شديد بسبب 11

1- خليج على الشواطئ الكوبية، وهو المكان الذي شهد محاولة فاشلة لاجتياح الجزيرة من قبل مجموعة كوبية معارضة في المنفى عام 1961، بمعرفة وتدبير من وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية.

سبتمبر، وكان يسعى إلى إثبات أن الوكالة ما زالت ناجحة، وأنها تعمل بجد واجتهاد. والمشكلة هي أن ما فعلته الوكالة سيؤذي بقية الأشخاص الذين يقومون بعمليات سرية للوكالة، وسيؤذي أسرهم؛ لأنه سيترك أزواجهم وأسرهم مكشوفين في العراء، إضافة إلى أنه يكشف عن إجراءات ومبادئ العمليات السرية والتجسس التي تقوم بها الوكالة ... ولست أدري لماذا يضحون بنا من أجل تحسين سمعة وصورة الوكالة؟».

كان من شأن الإفصاح عن اسم جون سبان أن جعل منه بطلاً، ولكنه أيضاً كشف عن هُوية زوجه التي كانت هي الأخرى تعمل سراً مع الوكالة؛ وبذلك أصبح معلوماً لدى الناس أن أبناءهما هم أبناء موظفين سرّيين في وكالة الاستخبارات المركزية. وحين تأملت ما قاله المتعاقد، فهمت أنه رأى في هذا الاحتفال العلني بالمهارة الخاصة لعمله السري انتهاكاً للدستور الذي يحكم عمله. ويبدو لي أن رغبة المتعاقد في التحدث إلي حول هذا الموضوع، نابعة من شعوره بالغضب المتولد من رؤيته انهيارَ مبدأ السرية. لقد قام المتعاقد الأمني المستقل الذي يعمل معه في العالم السري لمهمات الوكالات الحكومية الأخرى بالقبول بالوظيفة التي كُلّف بها؛ لأنه كان يثق بأن هُويته وما يقوم به من مكايد ستبقى طيَّ الكتمان، إن لم يكن ذلك حماية له، فعلى الأقل حماية لأسرته وأبنائه من بعده. ولكن يبدو الآن أن وكالة الاستخبارات المركزية مستعدة للتضحية بذلك العهد الذي قطعته على نفسها أمام عملائها، بغية تحقيق بعض المجد.

طلب إليَّ المتعاقد أن ينزل قبل قاعدته بمسافة قصيرة؛ لكي يوفرَ على نفسه مشقة تفسير وجوده في منطقة تابعة لسيطرة طالبان، فودعته بالقرب من الحصن المبني من الطين على حافة الإمبراطورية ثم تابعت مسيري في سيارة الأجرة الصغيرة.